

المكتبات في عالم متغير : أي مستقبل للمكتبات الجامعية؟

Libraries in a Changing World : What Future for Academic Libraries?

Les bibliothèques dans un monde en mutation : quel avenir pour les bibliothèques universitaires?

د. وحيد قدورة

جامعة منوبة

المعهد العالي للتوثيق - تونس

مخبر البحث في علم المعلومات SILAB

شغل خطة مدير عام للتعليم العالي بوزارة التعليم العالي بتونس،
وخطة رئيس وحدة البحث " المكتبة الرقمية والتراث، وخطة
رئيس الإتحاد العربي للمكتبات والمعلومات، وخبير في
استراتيجيات الأرشفة والتوثيق والمعلومات، وخبير في سياسات
واستراتيجيات التعليم العالي والبحث العلمي.



wahidgdoura@gmail.com

مستخلص : تمر المكتبات ومرافق المعلومات بمرحلة جديدة تتميز بعدم اليقين، نتيجة اكتساح تكنولوجيا الرقمنة لهذا الفضاء المعرفي وعولمة المعلومات. وأمام الفرص المتاحة للصرح المكتبي ضمن ديناميكية التغيير والتحديات المحدقة به نقترح التفكير في التحولات الحاصلة له وانعكاساتها على السلوكيات والممارسات والقيم وعلى أنماط إنتاج المعرفة ونقلها مع دراسة حالة المكتبات الجامعية واستشراف مستقبلها.

ومن خلال دراسة وضعية المكتبات الجامعية سعينا لدراسة موقعها المتجدد في منظومة التعليم العالي ووظائفها المتغيرة، بدءا باستنتاج مفهوم الوقت والمكان ونقصد به الوقت الأكاديمي وفضاء المكتبة. إن الوظيفة التوثيقية للمكتبة الجامعية لم تعد لوحدها تستقطب الجمهور الجامعي وخاصة الشباب الطلابي الذي يولي أهمية للوظيفة الاجتماعية الاتصالية حيث التلاقي والاتصال للحوار وبناء المعرفة وبناء الشخصية الفكرية للطالب.

تخلص الورقة الى ضرورة إعادة التفكير في استراتيجيات المكتبات الجامعية في فترة الانتقال الرقمي وإعادة تحديد رؤيتها وأهدافها وخدماتها.

الكلمات المفتاحية : المكتبات الجامعية، المكان الثالث، فضاءات المعرفة، الوقت الأكاديمي، الرؤية.

Abstract : Under the pressure of digitization technology and with the globalization of information, libraries and information facilities are going through a new phase characterized by uncertainty. Libraries have new opportunities within the dynamics of change and as well as new threats. The following paper is an attempt to reflect on the transformations that have occurred and their impact on the behaviors, practices, values and patterns of production and transfer of knowledge. We also focus on the current situation of academic libraries and contemplate about their future.

By studying university libraries, we wanted to examine its changing location as well as its changing functions, starting with the concepts of time and space; i.e. academic time and library space. The documentary function of the university library is no longer the only function that attracts the university audience, especially young students. The latter give a lot of importance to the social function. They need a place where they can meet and communicate, build knowledge and build their intellectual personality.

The paper concludes that there is a need to reconsider the strategy of academic libraries in the digital transition period as well as a need to redefine their visions, goals and services.

Key Words : Academic Libraries, Third Place, Academic Time, Knowledge Space, Vision.

Résumé : Les bibliothèques passent par une période d'incertitude suite à l'expansion des technologies du numérique et la mondialisation de l'information. Des opportunités s'offrent aux bibliothèques, mais également des contraintes voire des menaces pèsent sur elles. Le présent travail développe une réflexion sur les changements actuels et leurs incidences sur les comportements, les valeurs de l'information, et les modes de production et de transfert des connaissances.

A partir de l'étude de cas des bibliothèques universitaires, on s'aperçoit que ces institutions continuent à garder leur place au sein du système de l'enseignement supérieur, tandis que leurs fonctions se renouvellent. En interrogeant les notions des temps académiques et l'espace de la bibliothèque, il s'avère que la fonction documentaire ne suffit plus pour attirer le public universitaire qui s'attend aussi à une fonction socio-communicationnelle. En empruntant la notion de « troisième lieu » la BU est aussi un espace de rencontres, de débats, d'échanges et de construction du savoir. Enfin, il est important, de repenser la stratégie des BU arabes en période de transition numérique, et redéfinir leur vision, leurs objectifs et leurs services.

Mots clés : Bibliothèque universitaire, Troisième lieu, Lieux de savoirs, Temps académiques, Vision.

المقدمة

"عندما تهب رياح التغيير هناك من بيني جدراننا، بينما يقيم آخرون طواحين الرياح"

مثل صيني

تشهد المكتبات تطورات باستمرار وترافق الإنسان في رحلته نحو المعرفة والاكتشاف وتواكب نمو الفكر البشري. تمر هذه المكتبات اليوم بمرحلة جديدة تتميز بعدم الاستقرار وعدم اليقين وبالتعقيد، وبرزت تحديات تهدد مستقبل المكتبات بعد أن اقتحمت تكنولوجيا المعلومات المكتبات وتحولت مجموعات مكتبية كبيرة إلى الفضاء الافتراضي، وتأسست المكتبات الرقمية على الويب وتعددت التطبيقات وخدمات المعلومات على شبكة الإنترنت، إلا أن هناك آراء خاطئة انتشرت لدى الجمهور حول مجانية المنشورات العلمية الرقمية وحول دور الإنترنت "كمكتبة كبرى"، فظهرت النزعة نحو التخلص من الوسيط المكتبي وبدأ المستفيدون يهجرون المكتبات.

إنها وضعية جديدة لمرافق المعلومات والمكتبات تطالعا فيها التقلبات والمستجدات باستمرار، وأمام هذه المخاوف حول مصير الصرح المكتبي والتهديدات المحدقة به يقف الباحث للتفكير في هذه التحولات وفي مراجعة دور مرافق المعلومات في العصر الرقمي. الملاحظ أن هذه التهديدات ليست جديدة، فقد جابهتها المكتبات منذ بدء استخدام تكنولوجيا المعلومات في المكتبات، وصدرت تصورات و"تنبؤات كارثية" حول مصير المكتبات منذ السنوات 1960¹ (سعد الزهري، مج 35، 2015)، وهي التي يروج لها في

¹ - صدرت رؤى وتنبؤات عام 1962 بخصوص مستقبل المكتبة في القرن 21م. هذه التنبؤات كتبها حبيب سلامة في مجلة عالم الكتب عام 1962 بعنوان "المكتبات الالكترونية للقرن 21: الرواد سيتعاملون مع الأجهزة والآلات".

الغالب المهندسون وليس المكتبيون (Maurice Line, 2004) جاء ذلك نتيجة انعكاسات الرقمنة والعولمة على أنماط انتاج المعرفة ونقلها وبثها واستخدامها، إلا أن هذا التأثير لا يهم المكتبات فقط بل جميع فضاءات المعرفة من مدارس وجامعات ومتاحف ومرافق المعلومات وكذلك على جميع القائمين والمتدخلين في هذه المرافق.

لذا تسعى الورقة لتحليل التحولات في فضاءات المعرفة بصفة عامة وفي فضاءات المكتبات بصفة خاصة قبل أن تدرس حالة المكتبات الجامعية.

تساؤلات الدراسة

- ما مدى تأثير الرقمي على فضاءات المعرفة؟ هل بقي مكان لفضاءات المعرفة التقليدية؟
- ماذا يمكن أن تقدمه المكتبات التقليدية أكثر من محرك البحث جوجل للمستفيدين الذين يقبلون على التطبيقات المعلوماتية؟
- هل توجد قطيعة مع هذا الانتقال الرقمي على مستوى خدمات المكتبات والنفوذ الى المعلومات والعلاقة بين الوسيط والمستفيد؟
- كيف نستتق من جديد المفاهيم والرؤى لفهم التحولات الحاصلة في الفضاء المكتبي؟
- هل يتلاءم الخطاب المكتبي التقليدي مع الانتقال الرقمي ومع تموقع فضاءات المعرفة؟

أهمية الدراسة

تكمن أهمية الدراسة في الآتي:

- إعادة تفحص رسالة المكتبات ووظائفها كفضاء معرفي ابتدعته المجتمعات منذ القديم نظرا للحاجة اليه، إلا أنه أمام ضبابية المشهد نحتاج الى استشراف مستقبلها ووضع رؤية جديدة لها.
- التفكير في إعادة تشكيل نظم المعلومات حتى لا تبقى رهينة تصورات المهندسين ومصممي تكنولوجيا الرقمنة. تتأكد الحاجة الى تجاوز الخطاب "التقنوي" الذي يمجّد الأدوات التكنولوجية أكثر من التركيز على المحتوى الرقمي وعلى الذكاء.

1. فضاءات المعرفة: نحو انهيار الحواجز التقليدية

جميع فضاءات المعرفة تقوم إجمالاً بالأدوار الآتية:

- انتاج المعرفة: البحث العلمي والتأليف والابتكار (فضاءات الجامعات ومراكز البحث، الخ)

- نقل المعرفة: النشر والتوزيع والتدريس: (فضاءات دور النشر والمؤسسات التعليمية)
- بث المعرفة: إدارة المعرفة وخدمات المعلومات (فضاءات المكتبات والمتاحف، الخ)

رغم علاقة الترابط، نظرياً، بين هذه المؤسسات التقليدية، فإنها تعمل باستقلالية في مباني منفصلة عن بعضها وفق قواعد وتراتبية صارمة. إلا أنه حين اقتحمت تكنولوجيا الرقمنة هذه الفضاءات تغيرت العلاقة مع المكان والزمان، فالرقمي جاء ليتجاوز القوانين المنشدة في تنظيم أماكن المعرفة بل في تنظيم العلاقات بين القائمين عليها والجمهور. ذلك أن شبكات الاتصال تحولت إلى أماكن للمعرفة توفر مصادر المعلومات والبحث ومصادر التعلم والدروس الرقمية (MOOCS) وتعرض محتويات المكتبات الرقمية والمدارس الرقمية والمتاحف الافتراضية. كما تخطت هذه الفضاءات الرقمية الجديدة عدة حواجز في تحدّ كبير لمؤسسات المعرفة التقليدية:

- تجاوز الحاجز المكاني: تحولت الشبكات الرقمية إلى فضاءات كبيرة لنشر المعرفة وبثها في كل مكان متخطية حدود الدول والمسافات الجغرافية، إنه الاتصال عن بعد.

- اختراق الحاجز الزمني: علاوة على السرعة القياسية في نقل المعرفة وتأمين التفاعل بين الأطراف المعنية، فإن الفضاءات الرقمية تعمل وفق توقيت مفتوح، غير مقيدة بالوقت الإداري للمؤسسات التقليدية وبأيام العطل!

- تقليص نفوذ المدرّسين التقليدي: تقلص نفوذ هؤلاء الذين يمتلكون المعرفة، بما أن المعرفة أصبحت على مرمى حجر، إنها مشاعة في فضاءات مفتوحة، وبالتالي فإن العلاقة العمودية في نقل المعرفة من المعلم إلى الطالب ومن الخطيب إلى السامع ومن المكتبي إلى المستفيد تحولت، أو بصدد التحول، إلى علاقة تبادلية (réciprocité) وتغيّر معها نمط تداول المعرفة الذي أضحي في شكل تفاعلي بين القائمين والمعنيين بها (Bertrand, 2013)، وطرحت مسألة مدى شرعية تواجد الأطراف التقليدية المكلفة بنقل المعرفة اليوم.

- تقليص نفوذ المؤلف: تراجع دور المؤلف الذي يمارس نفوذه على القارئ². إنه النفوذ الذي يمارسه المؤلف على القارئ (عمر أوكان، 1991). إلا أن النص الرقمي غيّر العلاقة بين المؤلف والقارئ فهذا الأخير أمام نص رقمي مفتوح يمكنه من التدخل في المحتوى وتغييره دون الخضوع إلى قواعد ونواميس محدّدة، وبالتالي يتحول القارئ إلى "شبه مؤلف أو شبه محرر"، يكتب ويغيّر كيفما شاء. إنه التحرير التشاركي الذي تدعمه تقنيات الويب 2.0.

²- بالإشارة إلى كلمة المؤلف باللغة الفرنسية واشتقاقها من اللاتينية فإنها تعني النفوذ Author/ Auctor/ Auctoritas

طبعا، هذه التغيرات في فضاءات المعرفة شملت ايضا المكتبات ومراكز مصادر التعلم وجميع نقاط النفاذ الى المعلومات. فكيف تم الانتقال الرقمي في هذه المرافق؟ وما مستقبل المكتبات الجامعية وفضاءات التعليم العالي والبحث العلمي؟

1- المكتبات الجامعية: من فضاء مغلق الى فضاء مفتوح

فضاءات التعليم العالي والبحث العلمي: تحولات عميقة

أصبح التعليم العالي اليوم محل رهانات عالمية كبرى، إذ تستثمر الدول في هذا القطاع لبناء قدراتها المعرفية وتكوين الإطارات العليا ودفع التجديد والابتكار وإرساء اقتصاد تنافسي. في نفس الوقت، هناك توجه نحو العالمية إذ حصل تدويل للقوى العاملة وبرزت منافسة شديدة لجذب أفضل الطلبة الى دول الشمال وظهر نموذج جديد للتعليم هو تعليم عال عابر للقوميات (Transnational Higher Education, OCDE, 2008)

ورغم الفرص التي يوفرها هذا النوع من التعليم لتطوير القدرات الوطنية، فإن له انعكاسات سلبية من ذلك توجه الجامعات نحو "تسليع" منتجات التعليم العالي وجشع بعض الجامعات التي تغلب الجانب الربحي على الجودة والقيم الجامعية، وتهميش الأغراض العامة للتعليم العالي. وبرزت مخاوف من انحراف الجامعات عن رسالتها بعدم الاهتمام بتحسين أدائها في تأمين المعرفة وعدم احترام مبدأ تكافؤ الفرص أمام الشباب للارتقاء الاجتماعي وتغليب الاكتشافات الواعدة تجاريا على حساب البحث الأساسي وغير ذلك (ديريك، 2009).

الاتصال العلمي والمكتبات الجامعية

فضاء التعليم العالي هو فضاء لتوليد المعرفة وإنتاج المعلومات العلمية والتقنية ونقلها ونشرها. هو مكان للحوار والنقاش والتشارك وتقاسم المعارف تقوم فيه المكتبة الجامعية بدور أساسي في نقل نتائج البحوث وتبادلها وإعلام الباحثين والطلبة بأخر المستجدات العلمية، وفي هذا الفضاء تنساب المعلومات العلمية ويتوقف ذلك على دور المدرسين والمكتبيين. إذ مع إرساء نظم جامعية حديثة مثل منظومة إمد الأوروبية / أو مسار بولونيوي (Bologne Process)، والتي تتبناها عدة دول عربية والتي تقوم على مبدأ التحول من التلقين الى التعلم الذاتي ومن سلوكيات المجهود الأدنى الى سلوكيات المبادرة، بما يعني إيلاء أهمية كبرى لفضاء المكتبة. إلا أن دور المكتبات الجامعية في البلاد العربية تراجع نوعا وتقلص تردد الجمهور عليه. ويمكن إرجاع ظاهرة هجرة الطلبة والمدرسين الباحثين للمكتبات الجامعية إلى انتقال جزء من المجموعات المكتبية - كما ذكرنا- الى شبكات المعرفة الرقمية (الدروس الرقمية والمجلات الالكترونية والرسائل الجامعية على الخط..). وإمكانية وصول الجمهور إليها عن بعد، هذا الى جانب ضعف الخدمات في مرافق المعلومات العربية.

هذا يتطلب مراجعة دور المكتبة الجامعية ووظائفها، وكما تطرقنا لفضاءات المعرفة بصفة عامة فسنحاول فهم التحولات الحاصلة في المكتبة الجامعية من خلال استنطاق مفهومي الزمان والمكان، الوقت الأكاديمي ومكان العمل الأكاديمي؟.

- الوقت الأكاديمي:

كيف يتوزع الوقت الأكاديمي لدى الطلبة؟ وما حجم الوقت الذي يخصصه الطلبة للعمل الفردي؟

يرتبط توزيع الوقت (التصرف) بالنسبة للطلاب بنظام التعليم العالي ذاته وبالتغيرات التي حصلت ولا تزال اليوم في الجامعات. ينقسم هذا الوقت إجمالاً إلى ثلاث محطات غير متساوية (Fernex, 2013) وهي:

- الوقت المخصص للمحاضرات وإن كان النظام التعليمي لا يراقب حضور الطالب في المدرج ولا يجبره على ذلك.

- الوقت المخصص للأعمال التطبيقية: حيث يكون حضور الطالب في المختبرات العلمية/ المعامل التطبيقية إجبارياً. هذا بالإضافة إلى الوقت المخصص لإجراء الفروض والامتحانات حسب نظام نصف سنوي يعرف بالسداسيات.

- الوقت المخصص للعمل الفردي: يتفرغ الطالب للقيام بالفروض والواجبات الجامعية التي يكلفها بها الأساتذة: بحوث وقرارات وملخصات ومراجعة الدروس. هنا نشير إلى تنوع شبكات المقررات حسب الاختصاص (شبكة الدروس ثقيلة ولا تعطي وقتاً كافياً للعمل الفردي، وبصفة إجمالية فإن شبكة الدروس في العلوم الأساسية والتطبيقية (خاصة الطب والهندسة) أكثر كثافة من شبكة الدروس في العلوم الاجتماعية والانسانية. وبصفة عامة فإن نظام إمد "يغرق" الطالب بالدرس الحضوري ولا يفسح له المجال واسعاً داخل المكتبة للتعلم الذاتي ومراجعة الدروس. وينعكس ذلك على علاقة الطالب بالمعرفة وبالوصول عليها وباستيعابها، فليس للطلاب فسحة من الوقت الكافي للعمل الفردي ولا استخدام مصادر المعرفة والاستفادة منها.

ماهي مصادر المعرفة التي يستخدمها الطالب؟

يلجأ الطالب بدرجة أولى إلى الكتب التأليفية التي تلخص المعارف حول موضوع معين وتستجيب بالتالي لانتظارات الطلبة. إنها تقدم معلومات مختصرة ويسهل الوصول إليها. وبصفة عامة فإن الطالب يقبل على الكتب الجامعية التي لا تقرأ بأكملها بل فصل منها أو بعض الفصول، وتأتي بعد ذلك كتب التثقيف العلمي ثم كتب اللغة كتب الترفيه والقصص. والأقراص المضغوطة (دي في دي). وفي مرحلة متقدمة من الدراسة (الماجستير والدكتوراه) يستخدم الطالب المجلات العلمية وكتب المنهجية العلمية وتعليم الكتابة العلمية والتحرير العلمي.

ما هي الخدمات التي تقدمها المكتبات الجامعية للطلبة أو للشباب الرقمي؟ Digital

Natives

يخصص المكتبي في السابق وقتاً طويلاً لمرافقة القارئ وذلك بمساعدته على استرجاع المعلومات، وعلى المقارنة بين مصادر المعرفة والتحليل والاستنتاج، كما يساهم في بناء المعرفة. أما اليوم، فإن الاسترجاع أصبح آنياً، وللشباب من مواليد الرقمي Born Natives القدرة على الإبحار "لوحدهم" على الشبكة والسفر بين المواقع لتجميع حجم هائل من المعلومات، لكنهم يلاقون صعوبات لتنظيم المعرفة والمقارنة بين الموارد والتحليل وبناء المعرفة. إنهم لا يقومون بجهد فردي لأجل بناء المعرفة الراسخة (Roche, 2013, p.65). إنهم في عجلة من أمرهم، ولهم سلوك جديد للقراءة والاستيعاب المعرفي.

- استراتيجية القراءة:

الوقت المخصص للاستيعاب والقراءة قصير، وهنا يسلك الجمهور الجامعي استراتيجية جديدة للقراءة. الشباب يقرأ ولكن قراءة أخرى. إنها قراءة مغايرة للجيل السابق: ممارسات قرائية أخرى واستراتيجية مختلفة.

لم يعد تصميم الكتاب المطبوع مناسباً للقراءة في عصر السرعة والإيجاز. إنه الكتاب الذي يخرج الناشر وفق نوااميس وقواعد صارمة (تصميم الصفحة وتساوي الأسطر وتساوي الأحرف وحجم الصفحات). إنه "دليل القراءة" كما يفرضه الناشر على القارئ ويفرض معه نفوذه هو الآخر. إلا أنه مع تطور تكنولوجيا الرقمنة لم يعد المؤلف والناشر يفرض سلطته على القارئ بواسطة "كتاب مقنن" livre canonique فقد أصبح القارئ متمرداً على هذه المعايير فهو يتدخل لتغيير هذا الشكل الصارم للنص ويطويعه حسب "ميولاته القرائية". كما يتحكم في النص ويرسم استراتيجية القراءة وإعادة بناء النص حسب معايير الخاصة به (تحكم في حجم الأحرف وتغيير حجم الصفحة وإضافة الألوان. كتابة الملاحظات داخل النص وليس على الهامش) كما يقوم بالبحث السريع عن المعلومة المطلوبة دون قراءة مطولة.

يرى بعض الباحثين (Fenniche, 2009) (Belisle, 2011) أن القراءة على شاشة الحاسوب هي قراءة غير مسترسلة (مقسمة إلى أجزاء) أو "مفككة" بفعل تقنيات البحث والروابط الفائقة (هيبيرتكست) التي تسمح بالتنقل السريع من صفحة إلى أخرى ومن نص إلى آخر. إنها قراءة رقمية سريعة تعوض القراءة النشيطة التي كان ولا يزال يستخدمها القراء (من جولان البصر الأفقي إلى الجولان العمودي وإلى محطات الإرساء، وغيرها) بغية الوصول السريع إلى المعلومة وإنجاز الملخص التأليفي.

نخلص إلى أن الشباب الطالب أو الجيل الرقمي يقرأ ولكن قراءة أخرى، إنها قراءة على شاشة الحاسوب سريعة وغير مسترسلة باستخدام تقنيات الروابط الفائقة ومرتبطة خاصة بالفسحة الزمنية التي يوفرها نظام التعليم نفسه، علاوة على ضغوطات والتزامات أخرى. إن عامل الوقت يؤثر كثيراً على سلوكيات القراء، فماذا عن المكان المفضل للقراء؟

- ما هو المكان المفضل للعمل الفردي؟

حسب دراسة أجريت بفرنسا (Saby, 2013). حول عادات الطلبة في العمل الفردي، تبين أن البيت أفضل مكان ويأتي في المرتبة الأولى، يليه المكتبة في المرتبة الثانية ثم فضاءات جامعية أخرى في المرتبة الثالثة كما أن عادات العمل الفردي المبنية أساساً على القراءة المعمقة والمكاملة للدرس لم تعد ذات أولوية بالنسبة للطلاب، ومع ذلك يبقى استخدامهم للمكتبة هاماً. حسب دراسة أجريت في الدانمارك عام 2009 فإن المكتبات الجامعية وعددها 16، استقبلت 3.5 مليون زائر (عدد السكان 5.5 مليون نسمة) (Lauridsen, al, 2014)

ولكن ليس لاستخدام المجموعات فقط. ماذا يفعلون في المكتبة إذن؟

نلاحظ أن الزاوية التوثيقية ليست الوحيدة التي تستهوي الشباب الطلابي. الذي لا يأتي فقط لاستعارة الكتب أو لقراءتها على عین المكان أو لاسترجاع المعلومات في قواعد البيانات، بل يطلبون أيضاً من المكتبة الجامعية خدمات أخرى:

- مكان للتعلّم الذاتي ولمراجعة الدروس
 - استخدام الحاسوب وشبكة الانترنت
 - مكان للحوار واللقاءات الودية
 - مكان للترفيه وقراءة المجالات الثقافية ومشاهدة الفيديو
 - فضاء حر " لاستراحة القهوة والشاي واللجة "سندويتش".
 - مكان للنشاط الثقافي لعرض الرسوم واللوحات الزيتية والمحاضرات الثقافية والعلمية واللقاءات مع المؤلفين والمفكرين. إنه مكان للإبداع والتجديد.
- نستنتج أن جمهور القراء بالمكتبة الجامعية له انتظارات عدة ويريد تلبية هذه الاحتياجات وهذا يؤكد على أن هذه المؤسسة مطالبة بتأمين وظائف أخرى علاوة على الوظيفة التوثيقية: الوظيفة التعليمية والوظيفة الثقافية والوظيفة الترفيهية والوظيفة الاجتماعية. كيف يتسع الفضاء المكتبي لهذه الوظائف؟ يمكن استعارة مفهوم الفضاء الثالث الذي يتناسب مع هذه الاحتياجات.

المكتبات كمكان ثالث:

Third Place Library/ Bibliothèque troisième lieu

مفهوم Third Place اقترحه في بداية الثمانينات راي أولدنبرغ Ray Oldenburg استاذ في علم الاجتماع الحضري بجامعة بنساكلو بفلوريدا، للتمييز بين المكان الأول وهو البيت والمكان الثاني وهو فضاء العمل، أما المكان الثالث فهو للحياة الاجتماعية ويرتبط بالفضاءات التي يتلاقى فيها الأفراد والجماعات للحوار وتبادل الآراء والتجارب. ومن أهم خصائص المكان الثالث أنه ودي يولد الرغبة للتردد عليه ويتيح الأمان مثل البيت وفرحة اللقاء وتثبيت الذات والتعرف على الآخر، وتعتبر المكتبة

نموذجاً مثالياً لهذا المكان الثالث (Bruxvoort, 2013) إذ يؤمن "لقاءات فكرية" مع المجموعات المكتبية، إنها لقاءات غير مباشرة بين القارئ والمؤلف. كما أن هذا المكان يستجيب لرغبة الطالب في إثبات ذاته وفي تقاسم ميولاته وقناعاته مع الآخرين.

يمكن للمكتبة الجامعية أن تستجيب لهذه الحاجات بشرط إبراز الوظائف الأخرى التي ذكرناها وعدم الاقتصار على الوظيفة التوثيقية. إنها مكان للموارد المعرفية متعددة الخدمات يجمع بين حاجيات الدراسة والبحث والمشاغل اليومية. من هنا يترتب عن ذلك إعادة توزيع الفضاء: رفوف مفتوحة للكتب ومخازن وقاعات للقراءة وللعرض وأماكن للتنشيط والتلاقي والترفيه. هذا يتطلب هندسة جديدة وتجهيزات حديثة وفضاءات مرنة قابلة للتعديل (Collignon Laure et Gravier Colette, 2011).

تعد المكتبة الجامعية مكاناً مفتوحاً/رحباً أي مفتوحاً على مختلف الأقسام دون حواجز مادية ينتقل المستفيد داخله بسهولة، ودون حواجز "ذهنية" أي لا توجد به رقابة ولا يمنع فيه تداول الأفكار بحرية.

إن مناقشة مفهوم المكان يوضح مدى الحاجة إلى الفضاء المادي للمكتبة فلا يمكن الاستغناء عن المبنى لأنه لا يقوم فقط بتوفير المجموعات حيث تحول جزء منها إلى الفضاء الافتراضي، بل بخدمات ووظائف أخرى. يستدعي ذلك "إعادة الاعتبار" للوظائف الأخرى التي طالما وجدت منذ مكتبة الإسكندرية وبيت الحكمة ببغداد والقيروان، خاصة الوظيفة الاتصالية والاجتماعية. إنه فضاء للتلاقي بين المستفيد والمكتبي، بين القارئ والمؤلف، بين القراء مع بعضهم البعض للحوار وبناء المعرفة. إن دراسة مفهوم الزمان والمكان يساعدنا على فهم واستشراف مستقبل المكتبة في فترة الانتقال الرقمي.

2. مستقبل المكتبة: الحاجة لتجديد خطاب المكتبيين

إذا أقررنا بالحاجة إلى مراجعة وظائف المكتبة الجامعية وعدم حصرها في الوظيفة التوثيقية فهل يستدعي هذا الحفاظ على المكان المادي وإعادة هندسة مبنى المكتبة، وهل تهدد المكتبة الرقمية هذا المكان؟

ولتجاوز حالة الارتباك والحيرة التي تسود أوساط المكتبيين العرب في ظل تنامي هجرة المكتبات وانصراف المستفيدين شبه الكلي إلى الفضاء الرقمي فإننا نحتاج إلى توضيح الرؤية وإعادة تحديد رسالة المكتبة والاهداف.

في مرحلة الانتقال الرقمي نحتاج إلى تجديد خطاب المكتبيين ليكون مواكباً للتغيرات التي يشهدها العالم اليوم، في عصر الابداع والتجديد والذكاء، وذلك بإعادة استنطاق المفاهيم التي بنيت عليها المكتبات وخدماتها وبإعادة تحديد الرؤية. إنها منطلق لوضع استراتيجية جديدة تعمل على إعادة تموقع مرافق المعلومات ومنها المكتبات الجامعية في فضاء المعرفة الكبير.

استراتيجية مرافق المعلومات

يتطلع التفكير الاستراتيجي الى تحديد أهداف للمستقبل وليس للفترة الحالية. وعادة ما يرمي الى تنفيذ الأهداف خلال فترة متوسطة المدى او طويلة المدى. وهو تفكير "استباقي" يحاول التعرف على التطورات المستقبلية وتوجيه نشاط المنظمات وفق ذلك

الرؤية Vision

الرؤية هي الدليل الذي يقود التغيير نحو هدف محدد، فهي عنصر قار في الاتجاه المرسوم. ذلك أنه أثناء فترة التقلبات تكون الرؤية معلما ثابتا لإنارة السبيل (في الاتجاه المطلوب). والرؤية حسب (Grouard, 1998). تدل على الفارق بين الوضعية الحالية والوضعية المنشودة، وهي التي تبرر الحاجة الى التغيير. وتختلف حدة التغيير حسب الحالات، فقد يقتصر على تطويع (التكيف مع وضعية معينة) وقد يكون تعديلا للمسار، في حين يصل في بعض الحالات إلى تغيير شامل. وسنأخذ مثالا عن ذلك:

وضع رؤية استراتيجية للمكتبات الجامعية

- 1- ضرورة التغيير في المكتبات الجامعية: وذلك بدراسة بيئة المعلومات بصفة عامة من خلال الأرقام والدراسات الميدانية. مع إبراز ظاهرة عدم الاستقرار التي تميز عصرنا، والضغوطات التي تواجه المكتبات كما سبقت الإشارة إليها.
- 2- تحديد رهانات التغيير: يمكن التركيز على إعادة الاعتبار لمرافق المعلومات، لتقوم بدورها في بناء مجتمع المعرفة، بما ينعكس إيجابا على المستفيدين والموظفين بالمكتبات والقياديين بها. وهنا من الضروري التعرف على انتظارات كل من هؤلاء.
- 3- تقديم رؤى بديلة للمكتبة الجامعية: هذه البدائل تتعلق بالأهداف وما يرافقها من نشاطات. يمكن اختيار ثلاثة أو أربعة بدائل يقترحها القادة والموظفون بالمكتبة الجامعية.
- مثال لرؤية بديلة أولى: إعادة اندماج المكتبة الجامعية في فضاء التعليم العالي والبحث العلمي لتكون شريكا فاعلا في توفير المعلومات العلمية وبناء المعرفة.
- مثال لرؤية بديلة ثانية: تحويل المكتبات الجامعية إلى قطب متميز وذلك ببناء مجموعات الكترونية وورقية متميزة وتقديم خدمات متميزة.
- مثال لرؤية بديلة ثالثة: تحويل المكتبات الجامعية الى فضاء معرفي مفتوح للتواصل والحوار بين الجامعيين وللتفاعل مع الفضاءات المعرفية الأخرى.
- مثال لرؤية بديلة رابعة: تغيير المكتبات الجامعية لتكون مراكز للتعليم وللنفاذ المفتوح وتأمين دورها الاجتماعي وفق برنامج التنمية المستدامة للعام 2030.
- ويمكن الاستئناس لهذا الغرض بنماذج لرؤى مكتبات جامعية في العالم (مثل كندا والولايات المتحدة).

الخاتمة

إن مستقبل المكتبات في عالم متغير يكون بتجديد الخطاب المكتبي، وبإعادة "اختراع" المكتبات وفق رؤية جديدة Reinventing the Library كما أن مستقبل المكتبات العربية ومنها الجامعية، رهين تجديد خطاب المكتبيين بها، هذا الخطاب يقوم على أربعة أمور:

- إعادة استنطاق المفاهيم ومن بينها مفهومي المكان والزمان.
- إعادة وضع رؤية بديلة للمكتبات بما يتماشى وبيئة المعلومات وهو أن الوظيفة الطبيعية للمكتبة كانت ولا تزال منذ القديم وظيفة اتصالية واجتماعية في الان نفسه وليست توثيقية فحسب.
- إعادة الاعتبار للوساطة المكتبية: اخصائيي المعلومات هو في الآن نفسه خبير معلومات وقيادي ومدرس وناشر رقمي، الخ.
- إعادة بناء الكفاءات والقدرات المكتبية: متحفزة للتغيير ولمواكبة التحولات المستمرة. وضع مدونة مهن المعلومات الجديدة والكفاءات، ومراجعة مناهج التعليم في علوم المعلومات والمكتبات وحلقات التدريب.
- ومن خلال مساءلة بعض المفاهيم نخلص الى أن المكتبة الجامعية العربية مدعوة الى مراجعة دورها ووظائفها وذلك ب:
- التحول من مفهوم دار الكتب الى دار المعرفة، ذلك ان دار الكتب هي مكان يوحى بالخرن وحفظ المجموعات المكتبية، في حين مفهوم دار المعرفة يجمع الى جانب وظيفة الخزن والتوثيق الوظيفة الاجتماعية الاتصالية ويلتقي بفضاءات معرفية أخرى كما أشرنا الى ذلك.
- الانتقال من التركيز على المصادر الى التركيز على الخدمات: بما أن هناك جزء كبير من المصادر أصبح متاحا على الانترنت، فإن جهد المكتبيين سينصبّ على خدمات المعلومات والعلاقات مع الجمهور: مرافقة المستفيدين وتدريبهم (ثقافة المعلومات، التحكم في المعلومات) الاتصال والتفاعل مع طلباتهم.
- التحول من فضاء مغلق الى فضاء مفتوح: أي تجاوز نموذج المكتبات المنعزل المخصص للتأمل الى نموذج للمكتبات الرحب المتحرر من القيود، يكون مخصصا للتلاقي ولخلق أجواء ودية ومريحة لنقل المعرفة وللنقاش وبناء المعرفة. إنه فضاء للإنسان حيث حرية تداول المعرفة.
- أخيرا تتوفر للمكتبات الجامعية فرصة ثمينة لتقوم بدور رئيسي في المشهد المعرفي الحالي المبني على أساس أن النفاذ المفتوح هو طريق الى العلم المفتوح والى المعرفة المفتوحة إلى المجتمع المفتوح open access/ Open Science/ Open Knowledge/ Open Society

المراجع

- أوكان، عمر (1991)، *النص والسلطة*، الدار البيضاء، إفريقيا الشرق، ص 78.
- ديريك، بوك، (2009)، *جامعات في السوق : إضفاء الصفة التجارية على التعليم العالي*، تعريب سوسن مستو، الرياض، العبيكان، 244 ص
- الزهري، سعد (2015)، "المكتبات الإلكترونية: دراسة تحليلية لنظرة الستينيات الاستشرافية". في *مجلة المكتبات والمعلومات العربية*، مج 35.
- مراد، محمد يوسف (2016) "الفرص الوظيفية المتاحة لاختصاصيي المكتبات والمعلومات من قبل الجمعيات المهنية الأمريكية والكندية والبريطانية : دراسة تحليلية مقارنة لمسمياتها وتوصيفاتها"، في *مجلة مكتبة الملك فهد الوطنية*.
- Belisle, Claire (dir) (2011), *Lire dans un monde numérique*, Villeurbanne : Presses de l'ENSSIB.
- Bertrand, Anne Marie (2013), « Médiation, numérique, désintermédiation : une nouvelle astronomie », in : *Bulletin des bibliothèques de France*, n°3 , 2013.- pp.23-29
- Bertrand, Anne Marie et al., (2008), *Quel modèle de bibliothèque?*, Villeurbanne : Presses de l'ENSSIB
- Bisbroucck, Marie Françoise (dir) (2014), *Bibliothèque d'aujourd'hui : à la conquête de nouveaux espaces*, Paris : Cercle de la librairie.
- Boraud, Anna (2017), « Quelles compétences pour les professionnels au Learning Center ? De l'Opinion à l'Utopie », in : *Bulletin des bibliothèques de France*, décembre, 2017.- pp.23-35
- Bruxvoort, Diane, *Library as Third Place* [en ligne],
- Collignon Laure et Gravier Colette (dir), (2011), *Concevoir et construire une bibliothèque : du projet à la réalisation*, Paris : Editions Le moniteur.

- Devauchelle, Bruno (2012), *Comment le numérique transforme les lieux de savoirs : le numérique au service du bien public et de l'accès au savoir pour tous*, Fyp éditions.

- Fenniche, Raja (dir) (2010), « Lecture numérique et usages du web », *actes des journées d'études* 14-15 avril 2009. - Tunis : ISD.

- Fernex, Alain (2013), « Temps académique, temps de l'apprentissage : l'évolution de la relation des étudiants à l'étude », in : *L'avenir des bibliothèques : l'exemple des bibliothèques universitaires*, sous dir. Florence Roche et Frédéric Saby, Villeurbanne : Presses de l'ENSSIB, pp.12-20

- Grouard, B., Meston, F (1998), *L'entreprise en mouvement : conduire et réussir le changement*, Paris : Dunod, p.61

-<https://www.sconul.ac.uk/sites/default/files/documents/318.pdf> (visited 28/4/2018)

- Lauridsen, J., Niegaard, H, (2014), « Les développements actuels des bibliothèques danoises », in : *Bibliothèque d'aujourd'hui : à la conquête de nouveaux espaces*, sous dir. Marie Françoise Bisbrouck- Paris : Cercle de la librairie, pp.113-118

- Line, Maurice (2004), « Les bibliothécaires et la connaissance : gardiens, fournisseurs, intermédiaires, guides, ressources ? », in : *Bibliothécaire, quel métier ?*, sous dir. Bertrand Calenge.- Paris : Cercle de la librairie, p.43

- Maud, Stephan Hachem, (2013), « De la lecture à l'usage de l'Internet arabe : enquête auprès de jeunes étudiants libanais » in *Documentaliste Science de l'information* (ADBS) vol.50, n°2, pp.62-69.

- OCDE (2007), « Renforcer les capacités nationales grâce à l'enseignement supérieur transnational », In : www.ocde.org/fr/educeri.pdf

- OCDE (2008), « L'enseignement supérieur à l'horizon 2030: accès, qualité et mondialisation »,
- Poissenot, Claude, (2009), *La nouvelle bibliothèque : contribution pour la bibliothèque de demain*, Paris : Territorial éditions.
- Roche Florence et Saby Frédéric (dir), (2013), *L'avenir des bibliothèques : l'exemple des bibliothèques universitaires*, Villeurbanne : Presses de l'ENSSIB.
- Roche, Florence (2013), « Définir et mettre en place une politique de service au public », in : *L'avenir des bibliothèques : l'exemple des bibliothèques universitaires*, sous dir. Florence Roche et Frédéric Saby, Villeurbanne : Presses de l'ENSSIB, pp.65-82
- Roche, Florence (2013), « Le bâtiment et sa place dans la politique de services au public.- in : *L'avenir des bibliothèques : l'exemple des bibliothèques universitaires*/ sous dir. Florence Roche et Frédéric Saby. – Villeurbanne : Presses de l'ENSSIB,- pp.83-96.
- Servet, Mathilde (2010), « Les bibliothèques troisième lieu : une nouvelle génération d'établissements culturels », in *Bulletin des bibliothèques de France* BBF, n°4, 2010.
- Swiatek, Cécile(2017), « Les orientations Skills and Competences au sein de LIBER », in *Bulletin des bibliothèques de France*, décembre, pp.23-35.

www.oecd.org/fr/sites/eduhe3/lenseignementsuperieuralthorizon2030accesqualiteetmondialisation.htm (date de visite 10/10/2017)